الفصل العاشر

منهج تربية البنات وحقوقهنّ وأدبهنّ وتعاملهنّ مع أُسَرهن

البحث الأول:

تربية الأبناء والبنات من الواجبات

أولادُنا هُم فلذاتُ أكبادِنا، وعمادُ ظهورِنَا وأمانةٌ في أعناقِنَا، فمَنْ راعى حقّ الأمانة ولم يُفرط فيها كان له الرّضا من الله تعالى والرّسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1].

فعلى الأبِ أن يُنفق على بنيه بقدر استطاعته حتى يهيئهم للنّهوض بأعباء الحياة ويُبصّرهم بما لها عليهم من واجبات وبما لهم من حقوق: قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[2].

وقد سما الإسلامُ بالنّفقة على العيال حتى جعلها أفضل من النفقة في سبيل الله. قال ﷺ: «**أفضلُ دينارٍ يُنفقُهُ الرجلُ؛ دينارٌ يُنفقه على عياله، ودينارٌ يُنفقه على فرسِهِ في سبيل الله - أي في الجهاد - ودينارٌ يُنفقه على أصحابه في سبيل الله**»[3]. قال بعضهم: بدأ بالعيال، فأيّ رجل أعظم أجراً من رجلٍ يُنفق على عيالٍ صغارٍ يعفُّهم أو ينفعُهم؟! ومعنى هذا أنّ إعداد العيال بما ينفعهم ويُغنيهم، من الأمور الموجبة لأعظم الأجر وجزيل الثواب عند الله تعالى!!!.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دينارٌ أنفقتَه في سبيلِ الله،**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٧.
(٣) صحيح مسلم برقم ٩٩٤.

ودينارٌ أنفقتَه في رقبةٍ، ودينارٌ تصدقتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقتَهُ على أهلك؛ أعظمُها أجراً الذي أنفقتَهُ على أهلك»[١]. فللأولاد - إذا لم يكن لهم ما يكفيهم - حق النفقة والتربية والإعداد للحياة، فمن فرّط في ذلك فقد لزمه إثمٌ كبيرٌ، فقد قال رسول الله ﷺ: «**كفَى بالمرءِ إثماً أن يُضيّع مَنْ يقوتُ**» وفي رواية أخرى: «**من يعول**»[٢]. وكلُّ ما أنفقه الرجلُ على بنيه فهو له به أجر، والله قد عوّض المُنفقَ خيراً؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «**ما مِن يومٍ يُصبح العبادُ فيه إلّا ملكان ينزلان، فيقول أحدُهما: اللَّهم أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقولُ الآخرُ: اللَّهمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**»[٣].

الرحمة والعطف على الأولاد:

بعض الآباء - مع الأسف - لا يُحسن تربيةَ أبنائه، فيعتقد أنّ القسوة والشّدّة معهم هي المعاملة المُثْلَى لكي يشبَّ الأبناء على احترام الغير وأداء الواجب. وما درى هؤلاء أن تلك المعاملة لا تُكوّن إلّا أبناءً ضعافَ الشّخصية يميلون إلى العدوان والتمرّد.

والأولاد يشبّون ويتكيّفُون على حسب ما وجدوا وعاشوا. فإذا أنبتوا في بيئة تسودها الرحمة والعطف والحنان، شبّوا وأخلاقهم هادئة كريمة عالية تفيض حباً وحناناً على من حولهم، وإذا نشؤوا في بيئة طابعها القسوة والشّدّة والعنف، شبّ الأولاد وفي طبائعهم العنف والكراهية والنّفور لمن يُخالطهم ويُعاشرهم، فعليك، أيها الأب أن تكون رحيماً بأولادك شفوقاً بهم يمنحوك ودَّهم وإخلاصَهُم ووَلاءَهم، وخاصةً عندما تكبر وتجد نفسك في حاجةٍ إليهم وإلى معونتهم. ويُروى في الأثر: رحمَ الله والداً أعان ولدَهُ على برّهِ.

ولنقرأ الآن قول أحد الأعراب في الأبناء وكيف نسوسهم ونُربّيهم ونُعاملهم. قال يزيد بن معاوية: أرسل أبي إلى أحنف بن قيس، فلما وصل إليه، قال له: يا أبا

(١) صحيح مسلم برقم ٩٩٥.
(٢) سنن أبي داود برقم ١٦٩٢، وإسناده حسن.
(٣) صحيح البخاري برقم ١٤٤٢.

بحر، ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين! هم ثمارُ قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحنُ لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصولُ على كل جليلة، فإن طلبوا فاعطِهِم، وإن غضبُوا فارْضِهم يمنحوك ودَّهم، ويحبوك جهدَهُم، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً فيملّوا حياتك ويودّوا وفاتك ويكرهوا قربك! فقال له معاوية: لله أنتَ يا أحنف!! لقد دخلت عليّ وأنا مملوء غضباً على يزيد! فلما خرج الأحنفُ من عنده رضي عن يزيد.

وأحب أن يتمثّل كل أب تربيته بمثل ما عامل رسول الله ﷺ سبطيه الحسن والحسين رضي الله عنهما، فقد كان ﷺ لشدة حبّه لهما أن كان يُطلق عليهما «ابنيّ» عليهما السّلام!!.

ونقل الترمذي في سننه عن أسامة بن يزيد أنّه قال: طرقتُ بابَ النّبيّ ﷺ في بعض الحاجة، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو؟ فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الّذي أنت مشتمل عليه يا رسولَ الله؟!

«فكشفه، فإذا الحسن والحسين وقال: **«هذان ابناي وابنا ابنتي، اللّهمّ إنّي أُحبُّهما وأحبُّ من يُحبهما»**[1].

ويقف التاريخ أمام هذا النّبيّ الإنسان الرحيم بالنّاس وبذي قرباه وحضرته، فيروى أنه مشى في أسواق المدينة حاملاً أحدَ حفيديه على كتفه، حتى إذا بلغ المسجد وقام للصّلاة وضعه إلى جانبه في رفق، وأقبل يؤمُّ القوم فتأخذهم الحيرة والعجب، إذْ يُطيل السجودَ على غير المألوف من عادته فلما قضيت الصّلاة قيل له: يا رسولَ الله أنتَ سجدتَ سجدةً أطلتَها حتى ظَنَنّا أنه قد حدثَ أمرٌ أو أنّه يُوحىٰ إليك. فقال: **«كلُّ ذلك لم يكن، ولكنّ ابني ارتحلني فكرهتُ أن أُعجلَهُ حتى يقضيَ حاجتَه!»**[2].

ولن ينسى الآباء ذلك المشهد الإنساني الرائع حين وقف الرّسول ﷺ يوماً يخطب المسلمين؛ فجاء الحسنُ والحسين، عليهما قميصان أحمران يمشيان

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٧٠٠٣.
(٢) المستدرك للحاكم، ج ٣/١٦٦، وهو صحيح.

ويعثران، فنزل النّبيّ ﷺ من المنبر، فحملهما ووضعهما بينَ يديه ثم قال يخاطب القوم: «صدقَ الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[١] **نظرتُ إلى هذين الصّبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتُهما**»[٢].

وتستطيع أنْ تُدرك حبَّه ورقّته ورفقته بحفيده الكريم الحسين رضي الله عنه فيما حدثوا به: فقد خرج الرسول يوماً في نفرٍ من صحابته إلى طعام دُعُوا إليه، فإذا بالحسين في السكة يلعب مع غلمان من أترابه، فتقدم الرسولُ أمام القوم وبسط يديه محاولاً أن يُمسك بحفيده والغلام يفر هنا وهناك، فما زال عليه الصّلاة والسّلام يُضاحكه حتى أخذه فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه، ثم قبّله وقال: «**حسينٌ منّي وأنا من حسين! أحبَّ اللّهمَّ من أحبَّ حُسيناً**»[٣]. والناس من حوله خاشعون إجلالاً يقول قائلهم: أراه ﷺ يصنع هذا بحفيده فوالله إنّ لي ولداً ما قبّلتُه قط؟!. فيرد النّبيّ ﷺ وقد أنكر هذه الغلظةَ الجافية؛ فقال: «**مَنْ لا يَرحمْ لا يُرحَمْ**»[٤].

البحث الثاني:

حقوق البنات على الآباء

للأولاد حقوق منذ الولادة حتى يصيروا رجالاً، يعتمدون على أنفسهم وحتى يستطيعوا الاستقلال عن أهليهم، وكذلك البنات لمسؤوليتها الكبرى حيث تكون أمّاً.

حثّ الإسلامُ على وجوب تهذيب خُلُق البنت، وتربيتها على الفضائل والمعارف التي تُنير ذهنها، والآداب الإسلامية التي تُرشدها إلى الطّريق الصّحيح، مثلها في ذلك

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥.
(٢) المستدرك ١/٢٨٧ وهو حديث صحيح.
(٣) سنن الترمذي برقم ٣٧٧٥ وهو في الصحيحة برقم ١٢٢٧.
(٤) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٥٩٨.

مثل الوَلَدِ، فالعلم حقٌّ للرجل والمرأة، لا فرق بين ذكر وأنثى، وقد حثّ الإسلام على طلب العلم وجعله فريضةً على الجنسين، فقال ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم**»[١]. ويُحدّثنا الأطفال عن نساء الأنصار وحُبِّهن في العلم فيقول: «**نِعْمَ النساء نساءُ الأنصارِ لم يَمْنَعْهُنّ الحياءُ أنْ يتفقهنَ في الدِّين**»[٢].

وكان كثير من نساء السّلف على جانب عظيم من العلم والفضل والفقه في دين الله تبارك وتعالى، ونودّ أن نسأل، هل نعلّم الفتاة من العلوم مثل ما نعلّم الولد؟ لا شك أن الطبيعة إذ فرّقت بين الاثنين أرادت أن يكون للرجل اختصاص في الحياة، غير اختصاص المرأة، وللمرأة اختصاص غير اختصاص الرجل، وما اختلاف التكوين الجسماني إلّا ليتجه كلٌّ منهما إلى ما أُعدَّ له.

إنّنا لا ننكر أن للمرأة عقلاً كعقل الرّجل، ولا نجحد أنها تفهم ما يفهم الرّجل من العلوم والآداب، بل قد تفوقه أحياناً في هذا الفهم، ولكن المرأة خُلقت لتكون زوجةً، هكذا فطرها الله، وفي إرادته الخير كله! فأيُّ خيرٍ نُجنيه إذا نحن ثقفناها بغير ثقافة الزوجة والأُمّ؟ أو أيّ ضيرٍ يلحقنا إذا نحن علّمناها من المعارف ما يزكي فيها استعداد الأُمومة ومواهب الزّوجة الصّالحة الكريمة؟!.

إن أصح التّعليم والتربية للمرأة من وجهة نظر الإسلام هو الذي يجعلها زوجةً صالحةً وأمّاً رؤُوماً وربّةَ بيتٍ مُدبِّرة، وإذْ كان مجال نشاط المرأة هو البيت وجب أن تعلم المرأةُ على وجه خاص تلك العلوم التي تهيّئها لأن تكون نافعةً لبيتها، ولأولادها ولزوجها!!.

أمّا الدراسات في غير ذلك من العلوم التي لا حاجة للمرأة بها فعبثٌ لا طائلَ تحته، فليست المرأةُ في حاجة إليها، وخيرٌ لها أن تصرف وقتَها فيما ينفعُها ويُفيدُها!!.

والمرأةُ المسلمةُ حين تتّجه إلى التّعلّم والاختصاص تضعُ نُصْبَ عينيها هَدْيَ

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٩١٤.
(٢) سنن البيهقي ج ١/ ١٨٠.

الإسلام في تكوينها العقلي والنّفسي والاجتماعي، بحيث يُؤهّلها تعلّمها للقيام بالمهمة الأساس التي خُلقت من أجلها، وبحيث تغدو شخصيةً واعيةً بنّاءةً في أسرتها ومجتمعها وأمّتها.

إنّ النّاس لن يزالُوا بخير ما دَامُوا يستوحُون منطق الطّبيعة في كل ما يأتون من أمر ويَدَعُون، والشّر كل الشّر في منابذة الطّبيعة ومجافاة سُنَنِها، فإذا أردنا أن تكون ثقافة البنت دائرة حول إعدادها زوجةً صالحةً، وأُمّاً رشيدةً، فذلك اختصاص طبيعتها وفيه الخير كل الخير.

وإذا كانت الظروف تدعونا إلى أن يكون من الفتيات طبيبات أو مدرّسات فلا بأس بذلك، لأنّا نستحسن أن يكون الطبيبُ الذي يُعالج المرأةَ امرأةً مثلَها، والمدرّسَ الذي يُعلِّمُها امرأةً أيضاً، وهو منطق الواقع الذي يتماشى مع طبيعة المرأة.

البحث الثالث:

أدب الأبناء والبنات مع الآباء(١)

ليت الأبناء قدّرُوا حقَّ الآباء، وعرفُوا فَضْلَهم عليهم حقَّ معرفته وواجبهم نحوهم، حتى يُقابِلُوا الإحسانَ بالإحسان، والفَضْلَ بالفَضْلِ، والواجبَ بالواجب، ولكن معظمهم لا يُقدِّرُون ذلك، إنّ أقل الواجب عليهم تجاههم الطّاعة والبر والإحسان مقابل إنعامهم عليهم وتعبهم لأجلهم وهم صغار. وكيف لا يجب على الإنسان أن يطيع والديه وقد حملته أُمُّه وَهْناً على وهنٍ ووضعتْهُ وَهْناً على وهنٍ، حملته حين كان جنيناً في بطنها وحملته بعد أن وضعته في حضنها على مرّ السّنين والأيام. وكم سهرتْ عليه لراحته واستيقظت من نومها لصياحه، ومرضتْ لمرضه،

(١) بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام: للدكتور مقداد يالجن ١٨٤ - ١٨٨ ط دار المريخ - الرياض.

وبكتْ لبكائه، والأب كدَّ وجدَّ وتعبَ من أجله ليكسب قوتَ يومهِ، فكم من الأيّام ذهبَ تحتَ شمسٍ محرقةٍ ودخان الآلات الخانقة، وحفر التّراب وحمل الأحجار والأكياس إلى أعالي العامرات، أو تحت بطون الأرض، وجبينُهُ يُصَبَّبُ العرق صباً وزفير أنفاسه يخرج من فيه وأنفه، كلُّ ذلك من أجل ولده رعايةً لنموّهِ، ومحافظةً على صحته وحياته.

فإذا كان الأمر كذلك أليس من الواجب معاونتهما، ورفع الأذى عنهما والإنفاق عليهما. ولا سيما إذا كانا قد ضَعُفَا وعجِزَا أو مَرِضَا وشَاخَا وبَدآ ينظران إليه نظرة من يطلب ردّ الجميل فهل يقابل النّعمة بالنّعمة والإحسان بالإحسان أم يُسيء إليهما بعد إحسانهما إليه.

إذنْ فلا غرو أنْ أوجب الله إحسانِهما وبرِّهما بعد واجبِ توحيدِهِ وعبادتهِ في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[2]. وإذاً فالواجب الأول على الإنسان توحيد الله وعبادته، والواجب الثّاني برّ الوالدين والإحسان إليهما ويجب عليه الاستمرار في برّهما والإحسان إليهما، ولو كانا كافرين، فقد ورد عن أسماء بنت أبي بكر الصّديق أنّها ذهبت إلى الرّسول ﷺ تستشيره عن صلة أمّها عندما قدِمَتْ وهي راغبة في تجديد الصّلة، قالتْ: قدِمَتْ عليَّ أمي وهي راغبة، أفأصِلُ أُمّي؟ قال: «نعم! صِلي أمّكِ» لأنّ هذا شيء والكفر والإشراك شيء آخر؛ هذا واجبها نحوها، وذلك واجب أمها نحو ربّها.

ولا ينبغي له أن يظهر أيَّ سُخْطٍ، أو ضجرٍ ولو بعبوس الوجه، أو تحريك المنكبين، أو بكلمة «أف»، لأنّ ذلك يُؤذيهما مهما كان طلبهما ثقيلاً فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣- ٢٤.

وكيف لا يؤذيهما ذلك وهما في هذه المرحلة من الكبر والعجز لا حول لهم ولا قوة كأنّهم أطفال، والضّعيف يتأذى من أقل لفتة مؤذية كما أن الأطفال يتأثّرون نفسياً ويتأذّوْنَ من أقل تهديد، أو الامتناع عن تحقيق طلبهم وكيف لا يتأثران من ذلك؟!.

في هذه المرحلة وأبناؤهما ثمرة جهودهما في الحياة وقد بَذَلاَ لهم كل ما لديهم من صحة ومال ولم يبق لهما إلا شيء واحد هو انتظار الإحسان والبر. ومن هنا نجد اهتمام القرآن برحمتهما ولو كان فيه تذلل لهما؛ وإذا كانت هناك آية في القرآن يمكن أن نفهم منها إيحاء لتذلل إنسان لإنسان في حالة من الحالات فهي هذه الآية التي تُوحي إلى الابن بالتذلل بالرحمة لوالديه في هذه الحالة من الكبر في السن.

وقد ذهب الإسلام إلى أكثر من ذلك حتى إنّه جعل طاعتهما والعمل من أجلهما جهاداً في سبيل الله تعالى. وردَ أنّ رجلاً جاء يستأذن النّبيّ ﷺ في الجهاد فقال له: «**أحَيٌّ والداكَ**» قال: نعم!؟ قال: «**ففِيهِمَا فجاهد!**»[1]. وينبغي له أن يُصاحب أمَّهُ ويرحمها ويخدمها ويراعي شعورها أكثر من الأب، لأن قلبها أرق وشعورها أكثر حساسية. وكما أن شعورها بالعجز أكثر ولأنّها تعبت من أجله أكثر من الأب، ولهذا قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[2]، فقد ذكر لها أتعاباً من هذا النوع ولم يذكر للأب، وقد أكّد هذا المعنى قول الرّسول ﷺ لأحد الصّحابة حينَ سأله: «مَنْ أحقُّ الناس بحُسْنِ صحابتي يا رسولَ الله؟ قال: «**أمُّكَ!**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أمُّكَ!**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أمُّكَ!**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أبوكَ**»[3].

ولقد تحدّث القرآن عمّا نال الذي برّ بوالديه وأحسن معاملتهما من الصّفح والغفران من الله وقبول ما عمل من الأعمال الصّالحة فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[4].

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٥٤٩.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٣) صحيح مسلم برقم ٢٥٤٨.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١٦.

obeikandl.com

وقد حكى الرّسول ﷺ قصّةَ رجلٍ كان في خدمة والديه وعند حاجتهما ويتحمل المشقة في سبيلهما فبسبب ذلك قد أنجاه الله من أزمةٍ وعذابٍ قال: «**انطلقَ ثلاثةُ نفرٍ ممّن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى الغار، فدخلوهُ، فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدّتْ عليهما الغار، فقالوا: إنّ الله لا يُنجيكم من هذه الصّخرة إلّا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجل منهم أنّه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنتُ لا أغبقُ قبلَهُما أهْلاً ولا ولداً، فنأىٰ بي طلبُ الشجر يوماً فلم أرحْ عليهما حتى نَامَا فحلبت لهما غَبُوقَهُما فوجدتهما نائمين فكرهتُ أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أحداً فلبثتُ والقدحُ في يديَّ، أنتظرُ استيقَاظَهُمَا، حتى برقَ الفجرُ، والصّبيةُ يتضاغون عند قدميّ، فاستيقَظَا فشربَا غَبُوقَهُمَا. اللّهمَّ إنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ، ففرّجْ ما نحنُ فيه من هذه الصّخرة، فانفرجتِ الصّخرةُ بمقدار**»، ثم دعا كلٌّ واحد بصالح أعماله حتى انفرجتِ الصّخرةُ ونجَوُا من الشّدّة[1]. كما بيّنَ القرآنُ وَبال العُقُوق والعصيان للوالدين فضرب المثل بابن عاق جاحد لا ينتصح بنصحهما ولا يُزعن لرجائهما فكانت عاقبته الخسران والهلاك قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾[2].

وكان هذا ممثّلاً في ابن نوح حين عصى أباه ولم يركب معه سفينته فكان من المغرقين.

ولقد اعتبر الإسلام عقوق الوالدين وقطع صلاتهما وبرّهما من كبائر الذّنوب فقال الرّسول ﷺ: «**ألاَ أنبئكُمْ بأكبرِ الكبائر؟**» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال: «**الإشراكُ بالله، وعُقُوق الوالدين، وقتلُ النّفس، وشهادةُ الزّور والزّنا**». وقال الرّسول ﷺ: «**إنّ من أكبر الكبائر أن يلعنَ الرجلُ والديه**»، قيل: يا رسولَ الله وكيف

(١) الحديث في صحيح البخاري برقم ٢٢١٥.
(٢) سورة الأحقاف، الآيتان: ١٧- ١٨.

يلعن الرجلُ والديه؟ قال: «يَسُبُّ الرجل أبا الرّجل فيسبُّ أبَاهُ ويسبُّ أمَّهُ»[١]. ومن عجب تعجب الصحابة من شتم الإنسان أباه في ذلك الوقت وكم كانوا يعجبون لو رأوا ما يحدث في زمننا من ضرب الأبناء لآبائهم، وشتمهم شتماً مباشراً، وتركهم مرضى على الفراش دون مساعدةٍ وخدمةٍ، وقطع إعانتهما، وهما عاجزان عن الكسب. بل أشد من هذا وأمرّ ما نسمع هنا وهناك أحياناً أن يقتل الابن أحد والديه أو كليهما طعناً بالسكين أو ضرباً بالرّصاص. ويا ترى كيف يكون مصير هؤلاء في الدنيا وعاقبتهم في الآخرة!؟.

غير أنه ينبغي أنْ يلاحظ أنّ الإسلام بالرغم من تشدده في عدم عصيان أمر الوالدين فإن الأمر ليس على إطلاقه إذ قيد هذا في حدود الدين فلا يطاعان مثلاً إذا أمرَا بشيءٍ يُعتبر مخالفاً للدِّين كأن يأمراه مثلاً بترك العبادة أو شرب الخمر أو ارتكاب الزّنا - كما يحصل - فقال الرّسول ﷺ: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق»[٢]!.

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[٣]. ومثل المنع من التّعليم لا لعدم قدرته المالية وإنّما لعقليته التافهة، لأنّ طلب العلم واجب المسلم. ومثل الإكراه في مسألة الزّواج فلا يحق له أن يكره ابنته على زواج شخص معين وهي لا تحبه أو لا ترغب فيه أو إكراه ابنه على زواج بنت معينة وهو غير راض ولا يرغب فيها وقد شرحنا ذلك في موضعه.

هذا وقد أشارت الآية السابقة إلى نقطة دقيقة وملحوظة هامّة، وهي أن عدم الطّاعة لا يستلزم قطع الصّلة والخصومة ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[٤] حتى ولو كانا كافرين فإنّ عصيانهما لا يُبطل الإحسانَ إليهما.

هذا ونجد أن الإسلام قد وطّدَ العلاقة بينَ الآباء والأبناء وجعلها صلةً قويّةً ورابطةً وثيقةً وأضفىٰ عليها القداسة الدّينية وقرّبها من العلاقة والرابطة بين الإنسان وربّه تبارك وتعالى.

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٢١٤.
(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٧٥٢٠.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٥.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٥.

البحث الرابع:

التّعامل بين أفراد الأسرة[١]

لا بدّ لكل أسرة من ترابطٍ محكم يقومُ على أساسهِ التعاملُ بينَ أفراد الأسرة؛ لكي تحقق حياتها السعيدة، وهذا الترابط المحكم يجب أن يقوم على هذه القواعد:

١ - أن يعامل كلُّ فردٍ من أفراد الأسرة غيرَهُ بما يُحب أن يُعاملوه به:

هذا المبدأ السّلوكي والمعيار الخُلُقي من أهمّ المبادىء التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية السّليمة، مهما كان لونُ هذا المجتمع وشكله ودينه. ولقد أشار به الحكماء والفلاسفة والاجتماعيون جميعاً ولقد أشادَ بِه الإسلام أكثر من هؤلاء جميعاً، حتى ربطه بالإيمان فقال النّبيّ ﷺ: «**لا يُؤمِنُ أحدُكم حتّى يُحبَّ لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسِهِ!**»[٢]. وليضع كلُّ فردٍ المعاملةَ التي يُريد أن يُعامل بها غيرَهُ أمام عينه أولاً، وقبل أن يقوم بها وليطبقها على نفسه مما يُرضي ضميره ووجدانه وقناعاته بالإنسانية أن يُعامله به غيره، فليعاملْ به هو غيره. إنّ هذا الميزان يُمثّل خير تمثيل ميزان خيرية السّلوك وليس هناك ميزانٌ عامّ ومعيارٌ شاملٌ يُمكن تطبيقُهُ في كل مجالات الحياة، وفي كلّ المجتمعات الإنسانية مثل هذا الميزان ومثل هذا المعيار. لأنّه يعتمد على القلب وعلى الضمير وعلى الوجدان النّابض بالخير إزاء موقف معيّن وإزاء معاملةٍ معيّنة يريد الإنسان أن يقف فيها أو يعمل بها.

٢ - المحبة والرحمة:

إنّ مجتمع البيت أشدَّ احتياجاً إلى التّراحم والتّحابّ والتّوادّ من أيّ مجتمع آخر، لأنّهم أحوج إلى الرّوابط الوشيجة بينهم، وكيف لا وهم يعيشون في مكانٍ واحدٍ؟!

---

(١) بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام: للدكتور مقداد يالجن ١٨٩ - ١٩٢ ط دار المريخ - الرياض.

(٢) صحيح الجامع برقم ٧٥٨٣.

ويحتاج كلّ واحدٍ إلى الآخر كلَّ يوم وكلَّ لحظةٍ؟!. ويواجه بعضهم البعض بصورة مستمرة بالليل والنّهار فإذا لم تتم معاملتهم على المحبّة والرّحمة فلا خير في حياتهم، ولا معنى لها. لأنّها حياة جافّة لا بهجة فيها ولا سرور ومثل هذه الحياة لا تطاق إلى الأبد.

إنّ قلة الأرزاق والوسائل الترفيهية لا تكون من أسباب تعكير الحياة بقدر ما تكون الغلظة والقسوة في المعاملة سبباً لتعكير الحياة وتفكك أوصال المجتمع بوجهٍ عام، ومجتمعُ البيتِ بوجهٍ خاصٍّ. فالبيتُ الذي تسودُ فيه الرحمة والمحبة والمودّة يعمره الحنان والعطف والشفقة، يمتلىء بالبهجة والسّرور والطمأنينة والاستقرار.

وإذا أراد الآباء أن تكون بيوتُهم من هذا النّوع فعليهم أن يُقابلوا أفراد الأسرة بطلاقةِ الوجهِ وابتسامةِ الثّغرِ، وأنْ يُضفُوا أبوّتهم وحنُوَّهُمْ وعطفَهُمْ وشفقتَهُمْ على الجميع، لا يخصُّون واحداً دون الآخر، وقد قال الرّسول ﷺ: «**ارحموا ترحموا، واغفروا يُغفرْ لكُم**»[1]. وكان مع علوِّ شأنه ﷺ وعظمة رسالته، وثقل حمله في نشر دعوته، لا يقصر في إضفاء محبّته على أهل بيته؛ فورد أنّ الحسن كان يبكي مرّة وكان أبواه لا يسمعانه، فأسرع الرّسول ﷺ إلى شاةٍ في ساحة الدار فحلبها وسقى الحسن من لبنها!! وكان مرة يخطب والحسنُ والحسين يأتيان إليه فيمشيان مرّةً ويعثران مرّةً أخرى، فنزل من فوق منبره فحملهما بين يديه، ثم قال: «**نظرتُ إلى هذين الصّبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتُهما!**» وكان مرّة يمشي في الطريق فوجد الحسن يلعب مع أترابه فحاول إمساكه وكان يفرّ منه من هنا إلى هناك، وكان يسعى وراءه حتى أدركه وحمله إلى صدره وقبّله من وجنتيه! عندما رأى هذا المشهد أحد الصّحابة قال: يا رسولَ الله! إنّ لي أولاداً ما قبّلتُ أحداً منهم قط؟! فقال له حينئذ: «**مَنْ لا يَرحمْ لا يُرحمْ**». وكان الرّسول ﷺ يُوصي دائماً الآباءَ بالرحمة بالأبناء وينصح لمن كان له ولد بالتّقارب إليه حتى يكون معه كما يكون الصبي مع

(١) صحيح الجامع برقم ٨٩٧.

الصّبي ملاطفةً له!! فورد مثلاً في هذا الصدد: «مَنْ كان له صبيٌّ فليتصابَى له»[١] وهذا هو أسلم تربية للصحة النّفسية في هذه المرحلة من حياة الأطفال، وليس هناك خطأ تربوي يساهم في خلق العُقدة النّفسية والشّعور بالكآبة في أعماق نفسية الأطفال أقبح من المعاملة بالغلظة والقسوة والصرامة.

وكم يخطىء هؤلاء الذين يضعون أنفسهم في أبراج عاجية وينظرون إلى أبنائهم من أبراجهم ويضفون على أنفسهم العظمة والجلالة والكبرياء، لا يتنازلون لمصاحبة أبنائهم ويقفون منهم موقف المتكبّر المتسلّط الغليظ المخيف، يخاف أولادهم من الاقتراب منهم، أو طلب شيءٍ منهم، بل يهربون منهم وهم في البيوت، ولا يجدون راحةً ومتعةً أمامهم بأيّ حال من الأحوال، بئس هؤلاء الآباء، وبئس موقفهم وأبوتهم وتربيتهم. وليس التّراحم والتّحابّ مقصورَين في البيت على ما بين الآباء والأبناء بل يجب أن تكون دعامة الحياة الزّوجية قائمةً على المحبة والرحمة أيضاً، فلا معنى للحياة الزّوجية إذا لم يكن أساسها المحبة والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[٢].

٣ - احترام مشاعر الآخرين:

إنّ لكلٍّ إنسان مشاعر عامّة وخاصّة تختلف عن مشاعر الآخرين بدرجة قليلة أو كثيرة فعلى كل واحد أن يفهم مشاعر كل واحد في البيت ثم عليه أن يحترم مشاعره وإحساساته عندما يُعامله، ولا سيما عندما يكون هناك غرباء أو ضيوف أو أصدقاء، إذْ أنّ عدم احترام المشاعر في هذه الحالة الأخيرة أشد على النّفس من الحالات السابقة. وكثير من أسباب الخلاف والمشكلات والنّزاع والخصومات تنشأ نتيجة عدم احترام شعور الآخر. كذكر واحد مثل عيوب الآخر أمام أصدقائه أو معارفه، أو

---

(١) ضعيف الجامع الصغير برقم ٥٨٠٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

أن يصرخ في وجهه أمام النّاس، لسببٍ من الأسباب، أو عدم القيام بواجب الضيوف عندما يدعو أحد الأفراد أصدقاءه أو عدم احترامه مشاعر ضيوفه.

من أجل هذا كله ينبغي أن يعتبر هذا الاحترام من أُسس التّعامل في مجتمع البيت، ثم إنّ الأبناء ينبغي أن يتعلّمُوا احترام مشاعر أفراد أسرته في البيت حتى يحترموا مشاعرَ النّاس خارج البيت أيضاً.

٤ - التعاون في القيام بالواجبات:

هذه المبادىء مهمة أيضاً في البيت وأكثر أهميّة أن يلتزم بها الزّوجان؛ ذلك أنّ أحد الزّوجين قد يعجز عن القيام بواجبه لحالات عَرَضيَّةٍ أو مرضيَّةٍ، أو أنّه لا يستطيع القيام به كما ينبغي لأمر من الأمور، فعلى الآخر في هذه الحالة أن يساعده ويُعاونه في أداء واجبه. فعلى كل واحد أن يعتبر أن كلّ الأعمال المتعلّقة بالبيت عمله وواجبه. فإن تقسيم الأعمال بين أفراد البيت ينبغي أن يكون وسيلةً لتيسير العملية لا التّخصّص الرّوتيني الجامد، إذ لا مانع من أن يقوم الرّجل بعمل المرأة، وأن تقوم المرأة بعمل الرّجل، إذا احتاج كلُّ واحدٍ إلى الآخر. ولا يُعتبر هذا تخنثاً من الرّجل أو استرجالاً من المرأة، كما يعتبر ذلك بعض الرّجال أو السّيّدات، فيرون أنّه من العيب أن يقوم أحدُهما بعمل الآخر ولو في الحالات الضّرورية، وهذا خطأ؛ قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[1]. وقال الرّسول ﷺ: «**خيرُكُمْ خيرُكُمْ لأهلِهِ، وأنَا خيرُكُمْ لأهلي**»[2]. وما أكرمَ النّساءَ إلّا كريم ولا أهانهنّ إلّا لئيم. وكان الرّسولُ ﷺ مع عظم شأنه! وجليل قدرِهِ لا يستنكفُ عن خدمة مهنة أهله!! فعندما سُئلت عائشة عن عمل الرّسولِ ﷺ في بيتهِ قالت: «**كان يكونُ في مهنةِ أهله، فإذا سمعَ الأذان خَرجَ**»[3]!.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٢) صحيح الجامع برقم ٣٣١٤.
(٣) صحيح البخاري برقم ٦٧٦، وسنن الترمذي برقم ٢٤٨٩ ومسند أحمد، ج ٦/ ١٢٦، وسنن البيهقي، ج ٢/ ٢١٥.